أثر تدهور الإدارة في سقوط الدولة الصفوية ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م

أ.م.د. طالب محيبس الوائلي أياد عبد الرحمن شيحان
جامعة واسط/ كلية التربية

وصلت الدولة الصفوية في عهد الشاه عباس الأول ٩٦ - ١٠٣٨ هـ / ٥٨٨ - ١٦٢٩ م) لى أوج عظمتها وعنفوانها، لكن بعد موته بدأت مرحلة التدهور، فقد شهدت إيران انحلالاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، إذ أن الشاه عباس الأول بذر أسس الكارثة التي حلت من بعده ، وظهرت علامات الانحطاط بسرعة بطريقة غير محسوسة، فيرى ادوارد براون، تطابق القصة المشا ورة عند المسلمين عن وفاة النبي سليمان عليه السلام وهو متكئ على عصاه، دون أن يعلموا عن ذلك إلا بعد سنة كاملة، وأن الأمور كانت تسير على وفق أوامره، حتى أكلت الدودة عصاه وسقطت فسقط عليه السلام على الأرض .. ، مع ظروف الدولة الصفوية بعد موت الشاه الحازم عباس الأول .

ويرى مؤرخ إير اني أسباب سقوط الدولة، أن السلالات تشبه البشر، من الطفولة؛ لذا فإن الدولة الصفوية وصلت مرحلة الكهولة بعد استلام الشاه سلطان حسين مقاليد الحكم ١٠٥ ١٣٥ هـ ٦٩٤ ١٧٢٢ م ، فكانت علامات الانقراض والسقوط تظهر يوماً بعد يوم بجلاء . فقد أوصى الشاه عباس الأول أن يكون حفيده سام ميرزا بن صفي ميرزا ولياً للعهد، ذلك أنه لم يبق أحد من أبنائه الذكور سالماً، فمنهم من قتله ومنهم من فقأ عينيه، كما قام بإضعاف القاعدة الصوفية التي استندت عليها الحكومة الصفوية، مفضلا غلبة المؤسسات السياسية على حساب الجوانب المعنوية والروحية، فأسهم بنفسه في اهتزاز أركان الدولة الصفوية وتدهورها، ووصل الأمر ذروته عندما وجه ضربة قاصمة للقزلباش وأبعدهم عن الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، لصالح رجال الدين من الفقهاء الشيعة الذين أولاهم عنايته وصاروا تدريجياً حملة الشريعة، فقد نال المير دام اد ألقاباً لم يفهمها إلا هو، وأصبحت صفة المرشد الكامل بعد عهد الشاه عباس الأول فارغة من محتواها، ولم يتم ذكرها إلا في المراسيم والتشريفات الخاصة .

وكانت الخطوة التي قصمت ظهر الدولة، تربية الأمراء في دار الحريم أو بيوت النساء، وهي الخطوة التي كانت لها عو اقب وخيمة، مما أتاح لموظفي البلاط أو خواجات السرايا التدخل في شؤونه؛ لأن هؤلاء الشباب عاشوا بعيدين عن المحيط الخارجي والحياة السياسية وليس لديهم خبرة في معالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الدولة [٨]. لذلك عم الفساد في كل مكان وتحكم الانته ازيون بأمور الدولة والرعية، وبدأ مأمورو البلاط وخواجات السرايا يديرون الأمور لصالحهم، وليس لصالح الشاه أو الدولة . طالما أن الجميع متساوون بعد أن أقدم الشاه عباس الأول على تقليل شأن القزلباش وقاعدتهم العسكرية بوصفهم طبقة ممتازة ومقربة من البلاط، فصار القزلب اشي يقف في الصف نفسه الذي يقف فيه الأرمني حديث الإسلام [٩]، لاسيما أن تغلغل العنصر الكرجي بعد عهد الشاه عباس الأول وتقلدهم مناصب الدولة المهمة والخطيرة، على حساب القزلباش والتاجيك [١٠].

ومن الجدير بالذكر أن حوادث تاريخية مهمة حدثت في عهد الشاه صفي كان لها صدى في أرجاء الدولة، هي ظهور أحفاد الشيخ زاهد الكيلاني في الساحة السياسية الصفوية وحضورهم في الصراعات السياسية، ونشاطهم في تدبير الدسائس في البلاط، سعيا إلى تحويل السلطة الصفوية لفرعهم الذي يرتبط بالبيت الصفوي، فصمموا على إجلاس السيد محمد خان بن عيسى خان قوجي الذي يرتبط بالصفويين من ناحية الأم، التي هي من أعقاب الشيخ جنيد [١١]، بدلاً من الشاه صفي ميرزا، وبقي هذا المخطط دون تنفيذ لعدم توفر الفرصة المناسبة، فأحفاد الشيخ زاهد الكيلاني كانوا ينظرون إلى الأسرة الصفوية بعين الغضب وعدم الرضا، وأن وصولهم إلى هذه المنزلة سببه الرعاية والتعليم اللذان أبداهما الشيخ زاهد الكيلاني لصفي الدين إسحاق الأردبيلي [١٢].

كان الشاه صفي وأتباعه غارقين باللهو والطرب والإفراط في الشهوات والملذات، نتيجة تحويل أقطاعات شاسعة من الأراضي إلى ملكية الشاه، وتوفر ثروة طائلة في الخزانة الشاهنشاهية، دون أن تنتفع الحكومة الصفوية منها في تقوية الدولة ومؤسساتها وتحديثها [١٣]. وبعد وفاته سنة ١٠٥٢ هـ ١٦٤٢ م) تولى الحكم ابنه الشاه عباس الثاني الذي حاول التصدي للانحطاط، فقد نشأ محباً للعلم والكتاب، نتيجة الاهتمام والتربية التي حضي بها من السيد مير مرتضى أصفهان ي أحد أبرز علماء الشيعة، فتحرر المتصوفة من الضغوط السياسية المسلطة عليهم من علماء الشيعة وتحسنت أوضاعهم [١٤].

وعلى الرغم مما أبداه الشاه من كفاءة في إدارة الدولة والجيش واستطاع استعادة قندهار، لكن التزامه وتدينه لم يدوما طويلاً، إذ بدأ ينزلق في الفساد والرذ يلة ويسعى وراء الأنس وشرب الخمر، وبدأت خزائنه تمتلئ بالمجوهرات والأموال، بسبب الهدوء النسبي وعدم

الحاجة إلى قوات مسلحة، غير أن هذه الأموال بدأت بالتناقص تدريجيا نتيجة الصرف غير الاعتيادي، كما أن عدم التوازن في تقسيم الثروة وتكدس الأموال لدى قسم من رجالات ا لدولة ورجال الدين وقادة الجيش، أحدثت شرخاً عميقاً بين طبقات المجتمع [٣].

ونتيجة إسرافه في شرب الخمر وانقطاعه للملذات على حساب صحته [٤]؛ توفي الشاه عباس الثاني سنة ١٠٧٧ هـ ١٦٦٦ م) وعمره لم يتجاوز ٣٣ سنة، وقيل أنه مات بسبب مرض قبيح لا يمكن ذكره يحدث بسبب الفا حش [٥]. دون أن يعين وليا للعهد، على الرغم من أنه كان أباً لولدين، مما استوجب تدخل آغا مبارك المشرف على خواجات السرايا، فأجلس صفي ميرزا على العرش الصفوي الذي بدأ يترنح بعد عام واحد، وأعيدت مراسيم تتويجه لادعاء المنجمين بأن طالع الجلوس للشاه صفي كان في ساعة ن حس، وبدأ الخطابة له باسم الشاه سليمان [٦].

لقد تربى هذا الشاه منذ صغره في سرايا النساء وكانت تربية خواجات السرايا ظاهرة عليه، فبقي تحت تأثيرهم بعد جلوسه على العرش، وازداد نفوذ هؤلاء الخواجات في عهده، وكانت خزانته بيد واحد منهم، علما أن هؤلاء ليس لهم طموح و منافع في الحياة، فلو أن أحد الخواجات جمع مالاً وثروة، فإنها تنتقل بعد موته إلى خزانة الشاه، فباشروا بصرفها على الملذات [٧].

انخفضت العائدات المالية وقيمة النقد، ففي الوقت الذي بلغت العائدات المالية سنة ١٦٦٥ م خمسين ألف تومان؛ فإنها انخفضت بعد سنتين إلى ثمان ية آلاف تومان، كما تعكر صفو العلاقات الإيرانية الهولندية بسبب حصول تجار الحرير على انواع رديئة، فاضطروا إلى استخدام القوة ودكّوا ميناء بندر عباس بالمدافع [٨]. عليه انخفضت عائدات الكمارك؛ فبعد أن كانت ٢٤ ألف تومان زمن الشاه عباس الثاني أصبحت عشرة آلاف تومان في عهد الشاه سليمان، كما أن إمبراطور الهند منع رعاياه من ارتداء المطرزات الذهبية في خطوة منه لمنع دخول المطرزات الإيرانية [٩]، إلى جانب كل ذلك انغمس الشاه في الملذات وإحياء ليالي الأنس، وكان مفرطاً في الشراب لدرجة لا يمكنه ركوب جواده، فيضطر أن يمشي على قدمي ه من القصر الملكي وإليه، وكذلك حال كل وزرائه ومرافقيه، فكان قسم منهم ينام في الشوارع أمام الدكاكين والساحات [١٠].

كما لم يبق للعنوان الصوفي أي ذكر، وتغيرت أحوال القزلباش وصاروا يمارسون أشغال عامة، مثل الحمالة والكناسة وغيرها، وكانوا منبوذين من المجتمع الإير اني العام والخاص، في المقابل ازدادت شوكة فقهاء المذهب الشيعي وهيبتهم، بوصفهم نواب الإمام الغائب،

وازداد نفوذهم الاجتماعي والسياسي، بل وتحولوا إلى مؤسسة مستقلة كلياً عن مؤسسة الدولة والشاه، ونالوا حقوقا متميزة وصاروا أصحاب النفوذ المشهود والأوحد [١١].

كان لـ عامل المذهبي والصوفي في الماضي أثر فاعل في جمع الناس حول الشاه؛ إذا ما داهم الدولة خطر، لكن ومنذ عهد عباس الأول وما بعده صار العامل الصوفي سببا في تفريق الناس عن الشاه، وسببا في كثرة الاضطرابات [١٢]. إن زوال تسلط الصوفية وبروز الإخباريين في ساحة الفقه الشيعي مكن الإخباريين من سد الطريق أمام كل تحليل أو اجتهاد عقلاني في فهم متون الدين وهذه المسألة هيأت أرضية كاملة ومناسبة من أجل حدوث صدامات وصراع بين فقهاء ومجتهدين شيعة [١٣]. لهذا قام بعض الفقهاء بإصدار فتاوى تفسق وتكفر الصوفية، ومن بينهم محمد باقر المجلسي المتو في عام ١١١ هـ ٦٩٩ م والملا محمد طاهر القمي المتوفى عا ٠٩٨ هـ ٦٨٧ م، مع أنهما كانا يدافعان عن الصوفية الصفوية [١٤].

لقد وصل الصراع بين الصوفية والفقهاء حدود القتل، فقد كان رجال الدين يخطبون ضد الصوفية في جموع الناس في أصفهان بغضب، ويذكرون أنهم ينكرون الله، فعلى الناس أن تلقيهم في النار، وأن قتل الصوفي من أفضل الأعمال المقبولة عند الله، بالمقابل كان الصوفية يواجهون العنف بالعنف، فذات مرة كان أربعة أو خمسة من الصوفية يستمعون إلى الخطيب وهو يشتمهم، فهجموا عليه وأخذوا يضربونه بشده، وحجتهم في ذلك أنه هو الذي يدع و إلى الموت، بمعنى آخر أن عهد الشاه سليمان ٠٧٧ ١٠٥ هـ ٦٦٦ ٦٩٤ هـ) شهد تشددا في تجاهل الصوفية ومحاربتهم على الرغم من أنهم المنشأ الأصلي للأسرة الصفوية [١٥]. مع هذا فإنهم لا يزالوا يشكلون عماد التشكيل العسكري الصفوي ولا يتوانون عن تقديم أرواحهم في خدمة المر شد الكامل، فقد استطاعوا في عهد الشاه سليمان من إخماد تمرد قام به تركمان صاين خاني [١٦]، وانتصروا مع قلة عددهم، وأبلى قائدهم كلب علي خان شاملو بلاءً حسناً، وأصيب بعشرة سهام، ونزف الكثير من الدم، وفضل القتال والموت على الهزيمة، وبالفعل فقد مات حين وصل لمنزل ه، وبالمقابل مات المرشد الكامل الشاه سليمان الصفوي عا ١٠٥ هـ ٦٩٤) على أثر إفراطه في الشراب والفسق والفجور [١٧].

على أي حال فالشاه سليمان فضّل حياة الحريم على مسؤولياته حاكما للبلاد، فلما قيل له أن العثمانيين قد يهاجمون بلاده؛ أجابهم بجواب المستعصم العبا سي نفسه إنه لا يكترث لهجومهم على شرط أن يتركوا له أصفهان [١٨]. ولم يعبأ بسيطرة قبائل القوزاق في عهده على كيلان ومازندران، وكانت معهم مدافع وأسلحة نارية جهزهم بها الروس الذين كانوا وراء حملتهم، أو بتكرار الاعتداء على إيران من الروس أنفسهم سنة ٠٧٩ هـ ٦٦٩ م، أدى إلى قلة هيبته أمام رجال الدولة والحكام، فمثلا قام حاكم لرستان يرمي خلعة أرسلها إليه الشاه

سليمان جانب [٩]، ومع أن عدد الجند الذين يتقاضون الرواتب في عهده بلغ ثمانين ألف ولكن عند الضرورة لم يجتمع سوى عشرة آلاف جندي [١٠].

عند وفاة الشاه سليمان جعل اختيار من يأتي بعده بيد رجال البلاط، وهو يعلم أين يكمن صلاح الدولة، وهذا معناه أن الشاهات الصفويين تخلوا عن منصب المرشد الكامل واكتفوا بمنصب الشاه [١١]. إذ قال لهم : إذا أردتم الصلح والسلام اختاروا سلطان حسين ميرزا وإذا أردتم تطور الدولة ورقيها والتوسع فاختاروا عباس ميرزا [١٢]. وبما أن عمته مريم بيكم كانت تحب السلطان حسين ميرزا أكثر من أخوانه، طلبت من خواجات السرايا تولي سلطان حسين العرش الصفوي ١٠٥ ١٣٥ هـ ٦٤٩ ١٧٢٢ [١٣]. ليبدأ مع عهده الانحطاط الكامل للدولة اجتماعياً وسياسياً وروحياً.

وبدأت مع عهده نهاية الصوفية وتسلط الفقهاء على مقاليد الأمور، فالشاه سلطان حسين كان قبل وصوله إلى الحكم متأثراً بأفكار ملا محمد باقر المجلسي المتنفذ [١٤]، وكان متديناً حليماً رقيقاً لدرجة أنه كان يلقب قبل توليه العرش ملا حسين [١٥]، وخلال مراسم جلوسه على العرش لم يسمح للصوفية أن يقوموا بالمراسيم المتوارثة مثل شد السيف على وسطه [١٦]، واستدعى بدلا من ذلك الملا محمد باقر المجلسي كي يقوم بالتشريفات ومراسيم التتويج [١٧]. ثم طلب من المجلسي أن يطلب منه شيئاً أو يحقق له أمنية، فتقدم بمنع المسكرات واللعب بالحمام، وإصدار الأوامر بطرد الصوفية، فقام الشاه بإصدار فرمان يمنع به تعاطي الخمر وأصدر أمره بسكب ٦٠٠٠ من دنان الخمر الشيرازي والجورجي الموجودة في سراديب القصور وأخرجت وكسرت أمام أنظار الناس، لكنه لم يصدر أمراً بطرد الصوفية [١٨].

وخلال السنوات القليلة الأولى من عهده نعمت البلاد بالهدوء، إلا أنه كان من نوع الهدوء الذي يسبق العاصفة، لأن قوى التمرد والثورة كانت في طور التكاتف، واستمرت الأوضاع الداخلية في التدهور في السنوات التالية [١٩].

أما موظفو البلاط الفاسدين وبالتنسيق مع مريم بيكم صاحبة النفوذ الكبير على الشاه، استمروا بحياكة الدسائس واستطاعوا بمكرهم سحب بساط الزهد من تحت الشاه، وأغروه بشرب الخمر ومن يومها صار أسير الكأس والشراب، كما وجه أنظاره نحو النساء بصورة لم يسبق لها مثيلا، ووضع جلّ تفكيره واهتمامه في كيفية جمع النساء الجميلات وزيادة عددهن في قصره، وتهيئة الملابس الجميلة والغالية لهن . فأرسل مأمورين لكل الارجاء ليختاروا من النساء أجملهن، وبسبب تملق خواجات البلاط سموا ذلك العام ميزورز) أي عام النساء [٢٠].

ظهرت عاد ٠٧٩ هـ ٦٦٩ م بوادر عاصفة سياسية، إذ قامت قبائل البلوج بمهاجمة كرمان ووصلوا قرب يزد وهددوا بندر عباس وعندما وصلت الأنباء للشاه سلطان حسين التفت إلى الملك الجورجي جيورجي الحادي عشر) الذي كان في زيارة للبلاط الصفوي، فطلب مساعدته لدرء هذا الخطر، وقد قدم الملك الجورجي المساعدة وهزم قبائل البلوج، فشاع بين الإيرانيين أن الشاه الصفوي استعان الأمير الجورجي النصراني ضد قبائل تابعة له ومن دينه[١].

فكر الشاه سليمان ٠٧٧ ١٠٥ هـ ٦٦٦ ٦٩٤) في تشكيل قوات نظامية جديدة، إلا أن ظروف الصلح والهدوء اللذين عمّا البلاد، وكون الشاه غير ميال للحرب جعلته يتقاعس عن فكرته، لذا أقدم على عزل كبار القادة، وأدى كل ذلك الى ضعف القوات المسلحة، لاسيما صنف المدفعية الذي لم يعطه الشاه أهمية، بل أن المدافع ولوازمها وعتادها ظلت لمدة طويلة حبيسة قلعة طبرك، وهناك الكثير من المدافع التي تركها البرتغاليون بعد رحيلهم من هرمز بعيارات وأنواع مختلفة لم يحسن استخدامها[٢].

عرف الشاه سلطان حسين بعدم الكفاءة وضعف الشخصية، لذا تبدل وضع الجيش من سيء الى أسوأ، إلا أن ثورة الافغان وإحتلال العثمانيين للبصرة وسقوط مسقط، دفعت الشاه والحكومة الى التفكير بجدية في تحسين وضع القوات المسلحة، لاسيما المدفعية، لذا قام الصدر الأعظم إعتماد الدولة) منذ العام ١١١ هـ / ٦٩٩ م بمراسلة عدد من ملوك أوربا طالبا إرسال عدد من مهندسي المدفعية وضباطها، لصناعة المدافع وتدريب الايرانيين عليها، فوصلت رسائل اعتماد الدولة بعد خمس سنوات، بعدها وصل الهولندي كورنليوس دوبروين إلى أصفهان برفقة مجموعة ضباط، لكن إيران لم تكن مستعدة في حينها للاستفادة منهم ففشلت المهمة[٣].

وبدلا من تقوية الجيش وإصلاح مؤسسات الدولة، امتاز البلاط بالتبذير وممارسات البذخ وسط انتشار الفقر، ففي عام ١١٨ هـ ٧٠٦ م ترك الشاه العاصمة ومعه حريمه والخدم وكبار رجال الدولة والبلاط، الذين وصل عددهم الى ستين ألف شخص، لزيارة فاطمة المعصومة في قم، والامام علي الرضا في مشهد . وتصل الخيام التي كانوا ينصبونها إلى عدة فراسخ بمسيرة دامت عاما كاملا، فكانت صرفيات هذه الزيارة ثقيلة جداً على خزينة الدولة، بل أفرغت الخزينة تماماً وعرّضت الولايات التي في الطريق الى الدمار[٤]. وهناك مقارنة تعطي تناقضا صارخا بين صورة الشاه عباس الأول الذي قطع المسافة بين أصفهان ومشهد عندما زار الإمام الرضا في ثمانية وعشرين يوماً ماشياً على الأقدام عام ٠٠٩ هـ / ٦٠١ م، والشاه سلطان حسين الذي عاد ليلقب هزواً بـ ملا حسين)[٥].

كما حدثت انتفاضة في أصفهان نتيجة المجاعة التي اجتاحت البلاد في سنة ١١٩ هـ ٧٠٧ م، وأحد ت اضطرابات في طرق القوافل، ومثلت مظهراً للضعف التدريجي للسلطة الحاكمة [٦]. لذا استغل خواجات السرايا هذا الضعف وصاروا أصحاب الأمر والنهي في الدولة، وأصبح تنصيب كبار الموظفين وعزلهم بأيديهم وأمور الحرب والصلح وعقد المعاهدات ونصب القادة والأمراء والحكام والولا ة بيد هؤلاء الخواجات ولا يحق لأحد أن يقوم بأي أمر إلا بعد موافقتهم، ولم يبق للشاه والأمراء سوى الاسم، وكان حال الوزير الأعظم مثل جميع الوزراء وموظفي الدولة ألعوبة بأيدي الخواجات [٧]. كما أصبحت الوظائف العامة تشترى وتباع كالمتاع ويتوارثها الابن عن أبيه، وترا جعت مرتبات الضباط بعد أن تولى أمور بيت المال مجلس المحاسبة الذي راح يوزع مرتباتهم بالأقساط، بحيث صار الضابط والموظف مضطراً لدفع رشوة لأعضاء المجلس المذكور ليتاح له قبض مرتبه، كما راح الحكام ومتعهدو جباية الضرائب يختلسون معظم ما يجبون من ضرائب ورسوم ولا يصل إلى الخزانة سوى ثلث المبلغ. وهكذا تخلخلت وحدة الجيش وأصيبت قوته بالانحلال [٨].

وسيطرت فئة من غير المثقفين على الأمور الإدارية مما أدى إلى تدهور الوضع الإداري العام للدولة، كذلك طال التدهور حكام الأقاليم والمدن فصار هؤلاء يعطون أموالاً طائلة إلى الخواجات م ن أجل إبقائهم في مناصبهم والسماح لهم بفرض الضرائب على الرعية والسرقة، فأصبح هؤلاء الحكام بحماية الخواجات من أية شكوى يقدمها الناس ضدهم [٩]. في وقت لم تكن هناك متابعة لشكاوى الناس إلا في حالات نادرة، حين يخرج الشاه من قصره للنزهة فيرتمي صاحب الحاجة أمام جواد ه، عندئذ فقط تأخذ شكواه طريقها بجدية [١٠]. لقد كان البون شاسعاً بين طريقة معالجة شؤون الناس في عهد الشاه سلطان حسين وطريقة الشاه عباس الأول الذي يخرج متنكراً لمعرفة مشاكل الناس [١١].

ومن الأسباب الرئيسة الأخرى المؤثرة في انحطاط الدولة الصفوية، العداء الشديد بي ن العناصر القديمة والعناصر الحديثة في قيادة الجيش، والصراع على المناصب، مما ادى الى فقدان هذا الجيش للشهامة والانضباط، وضعف متابعة الشاهات الصفويين، كما أسهم الصلح والسلام بين الدولتين الصفوية والعثمانية منذ العام ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م في تراخي القوات المسلحة [١٢]. ونتيجة البذخ والتبذير بدأوا يطرزون دروعهم وخوذهم وقبعاتهم المصنوعة من جلود الجاموس بالذهب، ويزينون سيوفهم بالجواهر، ولعل شاردن كان محقاً حينما قال : سوف تقضي هذه المظاهر على الجيش [١٣]، وبالفعل فلم يستطع هذا الجيش المهتم بالمظاهر والكماليات الصمود ضد الأ غاني الحفاة [١٤]، على الرغم من بروز بعض القادة المخلصين في الجيش الصفوي مثل فتح علي خان القاجاري، الذي أسرع مع ألف شخص من الشجعان

القاجاريين والمصارعين الجلدين بطرد الأفغان من قندهار وحقق انتصارات رائعة، وكان يرسل للشاه في أصفهان الغنائم والبيارق، غير أن الأمراء غير المخلصين أشاروا على الشاه أن هذه الانتصارات ما هي إلا تأييد إلهي له، أو أن هذه الانتصارات والبطولات والخدمات التي يقوم بها فتح علي خان القاجاري ستمنحه سطوة وقوة يصعب ضبطها، وقد نالت الأقاويل مسامع الشاه سلطان حسين، فلم يهتم بأمر القاجاريين ولم يعد عليهم [١٥].

ومن أسباب انحطاط الدولة، الاختفاء التام للنواة الدينية الأساسية التي شيدها الشاه إسماعيل الأول، والخلل في التوازن بين الأملاك العامة والخاصة، والسلوكيات غير المسؤولة لحكومة الظل المتمثلة في الملكة الأم وجواريها في البلاط، وتفسخ مستوى العائلة المالكة الأخلاقي من جراء التربية المنحرفة [١٦]. على أي حال فقد أسرعت الدولة في عهد الشاه سلطان حسين الخطى نحو الانحطاط، فقد كان الشاه والذين كانوا حوله من الأمراء يبحثون عن الراحة واللهو وكانوا يتجنبون الحرب، وكان كل أمر يصدره الوزير ينقضه القورجي باشي والعكس صحيح، وما كان يعرض على الشاه لم يقل عنه أي شيء سوى كلمة واحدة هي يخشي در) وهي كلمة تركية معناها حسنا [١٧].

وكانت في البلاد أقليات دينية منها الزرادشتية واليهود والنصارى، فكان التعامل معهم قاسياً؛ إذ أصدر الشاه سلطان حسين أمراً بدخول الزرادشت للإسلام بصورة إجبارية، ففي عام ١١١ هـ ٦٩٩ م زار أسقف أنقرة إيران وشهد بنفسه في حسن آباد المنطقة التي يسكنها الزرادشتيين؛ كيف أن الإيرانيين يأخذون الرجل الزرادشتي ويجبرونه على التسليم، وكيف أنهم خربوا معبد النار) وبنو مكانه مسجدا و مدرسة [١٨]. عليه فعندما هاجم الأفغان مدينة كرمان سنة ١٣١ هـ / ٧١٩ م لم ير سكانها الزرادشتيين أن الأفغان أعداءهم بل عدّوهم منقذين [١٩].

وكان حال اليهود كالزرادشتيين، فقد لاقوا أنواع العذاب والتشدد، وأجبروا أيضا على اعتناق الإسلام، على أن الجانب الديني أو المذهبي لم يكن السبب في تعقب اليهود، بل لأن هم كانوا قوة اقتصادية كبيرة نتيجة معاملاتهم التجارية، فاتهموا أنهم يؤتون السحر والشعوذة، ويسببون للبلاد أضراراً مادية كبيرة، فلاقوا مضايقات وصعوبات شديدة [١٠].

أما المجموعة الدينية الكبرى بعد المسلمين وهم النصارى، فقد كان نصف الأرمن يعيشون في منطقة جلفا في أصفهان، وهناك أعداد منهم في تبريز وهمدان أغلبيتهم من التجار، وحصلوا زمن الشاه عباس الأول على حريتهم في العبادة وممارسة الطقوس الدينية وبناء الكنائس، غير أنهم تعرضوا إلى حملات الصوفية المتعصبين وتحملوا خسائر وأضراراً

بالغة، مع أنهم أفضل حالاً من اليهود والزر ادشت [١١]. وفرض الشاه سلطان حسين الجزية عليهم وعلى الزرادشت واليهود، فضلاً عن ضرائب أخرى مما أثار حفيظتهم [١٢]. لذا تحول أغلب التجار الأرمن الذي قربهم الشاه عباس الأول إلى مهربين للسبائك الذهبية إلى الهند عن طريق البصرة [١٣]. كما ازداد التناحر بين سكان إيران المسلمين من السنة والشيعة [١٤].

أهملت الأسواق والتجارة ما أدى إلى انخفاض قيمة النقد الإيراني، ولم يكن هناك تاجر مستعد لجلب بضائعه إلى إيران ليتقاضى عنها عملة نحاسية، فقد انتشر مزيفو العملة في أرجاء البلاد، وإذا حدث وانكشف أمرهم يلجأون لدفع الرشوة [١٥]. أما الضربة التي قصمت كاهل الاقتصاد الصفوي تمثلت في انخفاض كمية إنتاج الحرير فبعد أن كان في زمن الشاه عباس الأول ألف طن وصل في عهد الشاه سلطان حسين إلى ١٦٠ طن فقط [١٦]. فضلا عن أن إيران دخلت في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي مرحلة جديدة من تاريخها، هو انتقال طرق التجارة بين الشرق والغرب من الخليج العربي إلى طريق رأس الرجاء الصالح أثر الاستكشافات الجغرافية، ففقدت إيران أهميتها بوصفها حلقة وصل بين أوربا والهند، فحاول الحكام وكبار الإقطاعيين التعويض عما لحق بهم من خسائر بممارسة ضغوط على الفلاحين وأصحاب الحرف، فارتفعت نسبة الضرائب في عهد الشاه سلطان حسين بمقدار يتراوح بين مرتين إلى ثلاث مرات ولم ينج من الضرائب حتى القبائل المتنقلة [١٧].

كما انعكس الوضع العام في المنطقة على الأوضاع الداخلية للدولة الصفوية، المتمثل ببروز قوة عمان البحرية في عهد الإمام سيف بن سلطان الأول (١٠٣ – ١٢٣ هـ ٦٩٢ – ٧١١م) وضغوطه المتزايدة على الشاه سلطان حسين في الحصول على الامتيازات التجارية نفسها التي حصل عليها الأوربيين، مهددا في حالة عدم الاستجابة بمهاجمة بندر عباس [١٨]. فهرع الشاه سلطان حسين للإنجليز طلبا للمساعدة، ومذكراً بالتحالف الإنجليزي – الإيراني، والعمليات المشتركة ضد هرمز ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢م، غير أن الإنجليز رفضوا بحجة أن إيران لم تف بالتزاماتها وامتناعها عن تسليم الشركة حصتها السنوية العائدة من الكمارك منذ أكثر من ثلاث سنوات [١٩]. ما دفع الحكومة الصفوية لطلب المساعدة من الهولنديين للحصول على مساعدات عسكرية؛ إلا أن الهولنديون هم أيضا رفضوا طلبات الشاه خشية على مصالحهم التجارية في الخليج العربي [٢٠]. فأرادوا جلب الفرنسيين الى المنطقة من خلال الامتيازات والإغراءات المالية والإعفاءات الكمركية، فعقدت معاهدة تجارية بين إيران وفرنسا عام ١٢٠ هـ / ٧٠٨م لكنها لم تتعرض إلى أي موضوع غير التجارة، مع ذلك فإن فرنسا لم تصادق على المعاهدة حتى عام ١٢٣ هـ ٧١١م

لانشغالها في حروبها الأوربية والشكاوى الكثيرة التي قدمها الكاثوليك إلى الحكومة الفرنسية، بسبب سوء معاملة الحكومة الإيرانية لهم [١١].

وهكذا دفع شعور الحكومة الص فوية بخطر التهديدات الخارجية المتمثلة بالأفغان والعمانيين للحصول على العون الفرنسي، فأرسلت السفير محمد رضا بيك ووصل باريس في محر، ١٢٧ هـ / شباط ٧١٥ م [١٢]، واستقبل في البلاط الفرنسي باحترام نظراً لأهمية إيران، غير أن السفير الصفوي ارتكب خطأ دبلوماسياً فاحشاً عندما رفض النهوض لممثل الملك الفرنسي مبرراً ذلك بأنه لا ينهض لمسيحي، مع أن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر استقبل السفير الإيراني باحترام ورفع له قبعته [١٣]، وأجرى محمد رضا بيك مفاوضات مع المسؤولين الفرنسيين، وتم التوصل إلى معاهدة جديدة حصلت بموجبها فرنسا على امتيازات تجارية كبيرة، غير أن الحكومة الصفوية لم تصادق على المعاهدة لعدم احتوائها على ما يشير إلى تكوين حلف لدرء الأخطار الخارجية، ولعدم حصول السفير على شيء فقد مات منتحراً [١٤].

انعكس ضعف الدولة الصفوية على البعثات الدبلوماسية التي وصلت لإيران خلال تلك الف رة، فحين وصلت لإيران عام ١٢٠ هـ ٧٠٨ م بعثة روسية برئاسة إسرائيل أوري أرسلها بطرس الأكبر ٦٨٩ ٧٢٥) [١٥]، استغل سبعمئة تاجر روسي، هذه الفرصة فرافقوا الوفد تخلصاً من دفع الضرائب الكمركية، وكان هذا العدد سبب إزعاج لسكان أصفهان، ولم يكن لهؤلاء من هدف سوى القيام بالأعمال التجارية [١٦]. كما استغل القيصر هذا الضعف فأرسل بعد سبع سنوات من البعثة سفيراً يسمى فلينسكي ليقدم للشاه شكواه من الاعتداءات التي تتعرض لها المراكز التجارية الروسية في إيران مطالبا بتعويضات كبيرة [١٧].

أما العلاقات مع الدولة العثمانية فقد استمرت ودية قرن من الزمان تقريباً، غير أن العثمانيين كانوا يدركون الضعف الذي دب في كيان الدولة [١٨]. ومن أجل الحصول على معلومات دقيقة أرسل الباب العالي مبعوثاً يدعى دوري أفندي إلى البلاط الفارسي لمعرفة حقيقة الأوضاع، ولاحظ المبعوث القلق الذي أصاب رجال الدولة من جراء مج يئه، فقد كان هؤلاء يخشون أن يكون سبب مجيئه طلب التخلي عن أقاليم معينة، واستغرقت زيارته ثلاثة أشهر ورفع تقريراً ذكر فيه أن الدولة الصفوية تشرف على كارثة [١٩]. وفي عام ١٣٤ هـ ٧٢١ م أرسل الشاه إلى القسطنطينية بعثة دبلوماسية برئاسة مرتضى قلي خان، الغاية منها إرس اء علاقات التفاهم مع الدولة العثمانية والحيلولة دون تقديمها المساعدة إلى مير محمود الأفغاني [٢٠].

بدأ الغزو الأفغاني لإيران أواخر سنة ١٣٤ هـ ٧٢١ م[١١]، بقيادة محمود الأفغاني، وحين توجه إلى أصفهان؛ حاول الصفويون عبثاً إيقاف هذا التقدم الكاسح فتعرضوا إلى هزيمة كاسحة في موقعة كلناباد[١٢]. وكان آخر ما قام به الشاه سلطان حسين ذبح آخر ثلاثة جمال بقيت لديه وتوزيع لحومها على الناس، وصار يدعو الله بعيون دامعة، ثم توجه في ظهر ذلك اليوم الموافق يوم الجمعة الثاني عشر من محرم ١٣٥ هـ / تشرين الأول ٧٢٢ م يرافقه عدد من كبار الم سؤولين نحو سفح جبل، ومن هناك أرسل مندوباً إلى محمود الأفغاني من أجل إعلامه عن استسلام الشاه وأن يجعل نفسه تحت حماية محمود ووصايته، وإمعانا في إذلالهم جاءهم رد الأفغان أن محمودا لا يزال نائماً، وعليهم الانتظار وهو لم يكن نائماً ، وأبقوا الشاه على فرسه في س فح الجبل لمدة نصف ساعة تحت أشعة الشمس، بعد ذلك قادوا الشاه لمقابلة محمود، فقام محمود أمامه وسلم الشاه عليه وأجلسه في مرتبة أدنى منه، وقام الشاه بنفسه وألبس العمامة على رأس محمود[١٣]. وعلى الرغم من هذه الظروف لم يكف الشاه عن التجمل ومعاشرة النساء حتى بعد حصـ ر أصفهان وسقوطها بيد الأفغان، وحينما أمر محمود الأفغاني أن لا يبقى مع الشاه سوى ثلاث من نسائه، طلب الشاه منه أن يعطيه ثلاث أخريات عد له أسماءهن، كما طلب منه بعض المجوهرات[١٤].

وهكذا كان مصير الشعب الإيراني الذي سار ذات يوم خلف شاه بعمر الصبا هو إسماعيل ا ول فأسس معه دولة، هو الآن يسير خلف الشاه سلطان حسين الذي يترواح عمره بين الخمسين والستين سنة ليستسلم لشاب أفغاني لا يتجاوز عمره ١٩ سنة[١٥]. وهيأت الأحداث للأفغان فرصة قتل الأمراء الصفويين دون ان يجهزوا على سلطانهم الضعيف، إلى ان استطاع نادر شاه أن يطرد الأفـ غان ويتوج نفسه وارثاً لملك الصفويين، وبذلك أسدل الستار على دولتهم . لكن الطريقة الصفوية بقيت في أشخاص الأمراء الصفويين الذين نجوا من السيف، فغادروا إيران الى الهند أو غيرها ليعودوا صوفية من جديد يجمعون حولهم المريدين . وهكذا انتهى الصوفيون صوفية كما بدأو[١٦].

هوامش البحث:

١) لارنس لاكهارت، انقراض سلسلة صفوي، ترجمة : إسماعيل دولت شاهي، تهران، ٨٠ شر / ٢٠٠٢م، ص ١٣؛ علي حسن علي المكصوصي، تطورات ايران الداخلية في ظل الغزو الأفغاني ٧٢٢ ٧٢٩ ، رسالة ماجس ير، كلية التربية، جامعة واسط ٢٠٠٦ ، ص ٢.

٢) لاكهارت، بيشين، ص ١٣.

٣) همان منبع، ص ١٤.

(٤) أسد الله سوري، بررسي نقش تصوف وصوفيكري در اعتلا وانحطاط سلسلة صفوي، ترجمه : بيامد فوق ليسانس، نشر نشد . دانشكاه تهران ٨ ٧ ١٩٩٩ ٠٠٠ م، ص ٨٧ .

(٥) همان منبع، ص ١٨٨ .

(٦) همان منبع، ص ١٨٩ .

(٧) اسكندر بيك تركمان، تاريخ عالم اراي عباسي، تهران ٥٠ شر ٩٧٢ م، ، ص ١٩٣ .

(٨) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ، بيروت ٢٠٠٢ ، ٤ ، ص ١٧١ .

(٩) أسد الله سوري، بيشين، ص ١٨٩ .

(١٠) همان منبع، ص ١٩١ .

(١١) همان منبع، ص ١٩٣ .

(١٢) همان منبع، ص ٩٤ ؛ باول لوفت، إيران در عهد شاه عباس دوم، ترجمت : كيكاووس جهانداري، تهران ٨٠ شر ٠٠٢ م، ص ٣٣ ١٣٤ .

(١٣) باستاني بارزي، سياست واقتصاد عصر صفوي، تهران ٦٧ شر ٩٨٩ ، ص ٥٥ .

(١٤) لاكهارت، بيشين، ص ٣ .

(١٥) أسد الله سوري، بيشين، ص ١٩٨ .

(١٦) همان منبع، ص ١٩٩ .

(١٧) مارتين سانسون، سفرنامه سانسون وضع كشور شاهنشاهي ايران در زمان شاه سليمان صفوي، ترجمه : تقي فضلي ٤٦ شر ٩٦٨ ، ١٧٧ .

(١٨) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامي .. ، ٤ ، ص ١٧١ .

(١٩) المصدر نفسه، ٤ ، ص ١٧٣ .

(٢٠) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٠ .

(٢١) همان منبع، ص ٢٠٠ .

(٢٢) لـ كهارت، بيشين، ص ١٨ .

(٢٣) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠١ .

(٢٤) همان منبع، ص ٠١ ٢٠٢ ؛

Savory, Roger, Iran Under The Safavids, Cambridge, 1980, P. 236.

(٢٥) شاردن، سفرنامه شاردن، ترجمة : اقبال يغالي، تهران ٧٣ شر ٩٩٥ م، ، ص ٩٥ .

(٢٦) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٣ .

(٢٧) مان منبع، ص ٢٠٣ .

٨٣) علاء نورس، المصدر السابق، ص ٣٢.

٨٩) حسن الأمين، المصدر السابق، ٤ ، ص ١٧٣.

٩٠) المصدر نفسه، ٤ ، ص ١٦٩.

٩١) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٥.

٩٢) حسن الجاف، موسوعة التاريخ السياسي لإيران من بداية الدولة الصفوية إلى نهاية الدولة القاجارية، بيروت ٢٠٠٨، الجزء الثالث ، ص ١٥.

٩٣) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٥.

٩٤) لاكهارت، بيشين، ص ٣٠.

٩٥) محمد وصفي ابو مغلي، ايران ـ دراسة عامة، البصرة ٩٨٥ ، ص ٥٧.

٩٦) لاكهارت، بيشين، ص ٣٠.

٩٧) عباس حسن الموسوي كمال السيد ، نشوء وسقوط الدولة الصفوية ـ دراسة تحليلية، قم، ٤٢٦ / ٢٠٠٥، ص ٢٦١.

٩٨) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٥ ، لاكهارت، بيشين، ص ٣٠.

٩٩) علاء موسى كاظم نورس ، العراق في العهد العثماني ـ دراسة في العلاقات السياسية ٧٠٠ ١٨٠٠، بغداد ٩٧٩ ، ص ٤٢.

١٠٠) دوسرسو، سقوط شاه سلطان حسين، ترجمة : ولي الله شادان، تهران ٦٤ شر ٩٨٦ م، ص ١٦.

(41) Savory, Op. Cit., P. 241.

١٠٢) خانيار بارة ، تاريخ نظامي ايران جنكهاى دو ، صفويه ، بلا معلومات ، ص ٩٢.

١٠٣) همان منبع، ص ٨٠

١٠٤) ايرج بقائي كرماني، شاه سلطان حسين جنكجو ـ تاريخ به روايت طنز، تهران، ٧٤ شر ١٩٩٦م، ص ٦٤ ؛ أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٦.

(45) Savory, Op. Cit. P. 243.

١٠٦) علاء نورس، المصدر السابق، ص ٢٥.

١٠٧) دوسرسو، المصدر السابق ، ص ٧٠.

١٠٨) رولان موسينيه، تاريخ الحضارات العام القرن السادس عشر و لقرن السابع عشر، ترجمة : يوسف أسعد داغر وفريدم داغر، بيروت ٢٠٠٦، ص ١٧٩.

١٠٩) دو سرسو، بيشين، ص ٨٠.

١١٠) سانسون، بيا ين، ص ١٠٧.

١١١) حسن الأمين، المصدر السابق، ٤ ، ص ١٧٠.

١٢) لاكهارت، بيشين، ص ١٨.

١٣) شاردن، بيشين، ، ص ٣٨٣.

١٤) حسن الأمين، المصدر السابق، ٤ ، ص ١٨٣.

١٥) عبد الرزاق بيك الدنبلي، المآثر السلطانية، تاريخ إيران وحربها مع روسيا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية لقرن التاسع عشر الميلادي، ترجم : محمد سيد أبو زيد، القاهرة ٠٠٥ ، ص ٦ ٧.

١٦) سعد الأنصاري، علماء إيران في العهد الصفوي إلى العهد البهلوي، بيروت، ٩٨٦ ، ص ٢٨ ؛ محمد علي حسين زاده، آفاق الفكر السياسي عند المحقق الكركي، ترجمة : علي طاهر، قم، ٤٢٦ ،هـ ٠٠٦، ص ٨٥ ١٨٩.

١٧) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢٠٩.

١٨) لاكهارت، بيشين، ص ١٣.

١٩) همان منبع، ص ١٤.

١٠) همان منبع، ص ١٤.

١١) همان منبع، ص ١٥.

١٢) علي الشيخ، الدولة الصفوية وأتباع الأديان والمذاهب الأخرى، بحث في كتاب الصفوية . التاريخ والصراع والرواسب ، ص ١٢.

١٣) حسن الأمين، ا صدر السابق، ٤ ، ص ١٧١.

١٤) عبد الله رازي، بيشين، ص ١٠٧.

١٥) حسن الأمين، المصدر السابق، ٤ ، ص ١٧٢.

١٦) عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية - الإيرانية . الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، بيروت ٩٩٩ ، ص ٠٢.

١٧) كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إير ن الحديث والمعاصر، بغداد ٩٨٥ ، ص ١.

١٨) طاهر يوسف عكاب الوائلي، العلاقات العمانية الإيرانية ٨٠٦ ٨٦٨ م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة ٩٨٩ م، ص ١١.

١٩) محمد عبد الله العزاوي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، دمشق ٠٠٧ ، ص ٩ - ١١.

٠) محمد عبد الله العزاوي، التحالفات الفارسية - الأوربية ضد عرب الخليج ٦٩٥ ٧٢٢ ، مجلة الخليج العربي، العد ، جامعة البصرة ٩٨٧ ، ص ١ ١٢.

١) محمد عبد الله العزاوي، دراسات في تاريخ الخليج العربي . ، ص ١٣.

٢) محمد عبد الله العزاوي، العلاقات الإيرانية - الفرنسية، ص ٨ ١٠.

١٣) كمال السيد، المصدر السابق، ص ٦٦.

١٤) محمد عبد الله العزاوي، العلاقات الإيرانية الفرنسية، ص ١٠.

١٥) محمد وصفي ابو مغلي، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

١٦) حسن الأمين، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٥.

١٧) محمد وصفي ابو مغلي، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

١٨) حسن الأمين، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٧.

١٩) علاء نورس، المصدر السابق، ص ٣ ١٤.

١٠) المصدر نفسه، ص ١٤، الهامش.

١١) أكرم عبد الله الجميلي، العلاقات الإيرانية – الأفغانية، بحث في كتاب العلاقات الدولية لإيران، ج ١، بغداد ٩٨٨، ص ٢٧٨.

١٢) علي شاكر علي، العراق في العهد العثماني ٦٣٨ ٧٥٠ م دراسة في أحواله السياسية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٩٧٦، ص ٩١؛ سيد جواد طباطبايي، سقوط أصفهان بهروايت كروسينسكي، تهران ٨١ شر ٢٠٠٣، ١.

١٣) أسد الله سوري، بيشين، ص ٢١٢.

١٤) بطرس سركيس كيلانتر، سقوط أصفهان، ترجمت : محمد مهيدر، أصفهان، ٧١ شر ١٩٩٣م، ص ١٦.

١٥) حسن الأمين، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧٨.

١٦) كامل مصطفي الشيبي، الطريقة الصوفية ورواسبها في العراق، ص ٦؛ رسول جعفريان، علل برافتادن صفويان، تهران ٧٢ شر ١٩٩٤ م، ص ٩ ٢٥.